الأستاذ : خليفي حاج أحمد

محاضرات في مقياس المقاربات الاسلوبية

محاضرة: المقاربة الأسلوبية

- الأسلوبية (Sylistics, Stylistique) هي علم الأسلوب، أو دراسة الأسلوب"، فإنها اصطناع لغوي مستحدث نسبيا، يمتد إلى الكلمة اللاتنية كانت تطلق على "مثقب معدني يستخدم في الكتابة على الألواح المشمعة المدهونة ، ثم تطورت دلالاتها التأثيلية عبر القرون من الدلالة على كيفية التنفيذ في القرن 14م، إلى كيفية التعارك أو التصرف في القرن 15م، إلى كيفية التعبير في القرن 16م، لتمحض للدلالة على كيفية معالجة موضوع ما في نطاق الفنون الجميلة خلال القرن 17م

ثم تستقر الدلالة الاصطلاحية للأسلوب في حقل الكتابة على كيفية الكتابة، من جهة ومن جهة أخرى: كيفية الكتابة الخاصة بكاتب ما، أو جنس ما، او عهد معين ،...

أما المقاربة الاسلوبية قد كان (رنوفاليس). - أحد الأوائل الذين استخدموا هذا المصطلح على أن عامة الباحثين الغربيين نادرا ما يعتدون بمثل هذه الاستخدامات المتقدمة والتي ترد في سياق هيمنة العصر البلاغي، لأن الميلاد الحقيقي لها- إلى بدايات القرن العشرين، مع تلميذ دو سوسير تحديدا.

وابتداء من هذا التاريخ، بدأ الاهتمام بالدراسات الأسلوبية المقاربة يتزايد شيئا فشيئا مهتديا بالمعطيات العلمية الألسنية، ومتقاطعا مع حدود علمية أخرى كالبلاغة وفقه اللغة والنقد الأدبي وعلم العلامات... حيث ظهرت - بعد بالي – طائفة من الأسلوبيين الذين اشتقوا لأنفسهم طرقا واتجاهات ضمن هذا العلم الجديد، راكمت البحث الأسلوبي وأترته برؤى معرفية ومنهجية جديدة ورسمته علت الاتجاهات غامض الهوية، فإذا نحن أمام اتجاهات أسلوبية متمايزة، يختلف وحصرها من باحث إلى آخر.

حيث يفرق بريان جيل بين ثلاث أسلوبيات :

-مقاربة أسلوبية لغوية (يمثلها شارل بالى)

- مقاربة اسلوبية مقارنة (من شأنها أن تعتلي قاعدة المنهج في الترجمة)

- مقاربة أسلوبية أدبية (جاكسون، ديار غير و)

أما بيار غيرو فيميز بين أسلوبيتين اثنتين

- المقاربة الأسلوبية الوصفية (S. Descriptive)، أو أسلوبية التعبير (Sde I'mpression): هي أسلوبية الآثار، وبديال العلم الدلالة، تدرس علاقات الشكل بالفكر، مثلما تدرس الأبنية ووظائفها داخل النظام اللغوي، يمثلها شارل باري..

- المقاربة الأسلوبية التكوينية تتشبه بالنقد الأدبي، وتدرس التعبير في علاقته بالمتكلم، معتدة بظروف الكتابة ونفسية الكاتب. وتمثلها - أحسن تمثيل "الأسلوبية المثالية لدى ليو سيتزر.

وواضح أن غريماس، في غمرة رهانه الكبير كثيرا ما ينظر إلى المقاربة الأسلوبية وأخواتا (كعلم الدلالة) مثلا بعين التقزيم والازدراء، مقررا "فكرة زوال الأسلوبية، وموضحا بطريقة غير مباشرة القلق الذي يساور الباحث حالما يذكر اسم الأسلوبية"

وقد كان مثل هذا الكلام فاتحة عسيرة لخيبة عصيبة انتهت إليها الدراسات الأسلوبية، جعلت "المشتغلين في هذا الحقل لا يترددون في إلحاق هذه الأسلوبية بالسيميائية وتذويبها فيها بصورة مائية .

وكذلك احتفظ الأسلوبيون العرب بالتقسيمات الأسلوبية الغربية المقاربة في حين قسمها عدنان بن ذريل إلى ثلاثة اتجاهات كبرى "وهي على التالي: مقاربات (أسلوبية التعبير)، والتي عنيت بالتعبير اللغوي، و(الأسلوبية التكوينية)، والتي عنيت بظروف الكتابة، والأسلوبية البنيوية، والتي عنيت بالنص الأدبي وجهازه اللغوي"، كما قسمها محمد عزام - بدوره - إلى ثلاثة أقسام مماثلة، هي: الأسلوبية التعبيرية الأسلوبية الفردية (أو أسلوبية الكاتب)، الأسلوبية البنيوية.

بينما يرى نور الدين السد أن "الأسلوبية هي الوجه الجمالي للألسنية، إنما تبحث في الخصائص التعبيرية والشعرية التي يتوسلها الخطاب الأدبي، وترتدي طابعا علميا تقريريا في وصفها للوقائع وتصنيفها بشكل موضوعي ومنهجي".

و خلافا لغيره من الباحثين، فإنه يمعن في التمييز الدقيق بين الأسلوبية والبلاغة م ن خ لال شكل تخطيطي يقوم على 17 عنصرا كاملا تتمحور عليها المفارقة الكبيرة بين العلمين؛ كأن تكون البلاغة علما معياريا، تعليميا، وتكون الأسلوبية علما وصفيا، وضعيا، تعليليا.

لعل مثل هذا الكلام تبسيط إشكالي من شأنه أن لا يخلط المفاهيم، لأن الجواب عن السؤال الأخير قد يكون أيضا من اختصاص الأسلوبية المقاربة الأولى (والتي يسميها مرتاض تاريخية، ويسميها آخرون: تكوينية أو أدبية أو نقدية أو أسلوبية الفرد أسلوبية الكاتب)، كما أن السؤال (لماذا يكتب الأديب؟) قد تضطلع بالإجابة عنه أسلوبية أخرى يسميها "غيرو" (الأسلوبية الوظيفية) و يمثلها رومان جاكبسون....

وقد تراوح الإطار العام الذي ينتظم الأسلوبية المقاربة، في استعمالاتهما العربية، بين العلم (أوالقسم العلمي من العلم الأكبر: اللسانيات) والمنهج النقدي. وفي سياق محاور هذا الإطار، يرى محمد الهادي الطرابلسي أن التحليل الأسلوبي المقارب يختلف باختلاف مداخل التحليل، فقد يكون المدخل بنيويا بمعنى أن الانطلاق في المفردات وتراكيب الجمل وأشكال النصوص وهندسة الآثار، أو الصور ومعانيها الجزئية وموضوعاته الفردية وأغراضها المعتمدة، كما قد يكون المدخل بلاغيا ينطلق فيه من الظاهرة الاسلوبية او مجموعة من الظواهر المستخدمة .كما قد يكون المدخل إليه من الباب التقني فتعتمد فيه المقارنة المقايسة والإحصاء"، ويفهم من هذا الكلام أن للأسلوبية ضوابطها المنهجية،

وليست منهجا قائما بذاته، وقد رأينا أنها ليست علما مستقل الاختصاص، فكأها إذن ممارسة علمية تستعين في تحليلها – بآليات منهجية مستمدة من علوم و مناهج أخرى (علم الدلالة، والبلاغة، البنيوية، الإحصاء، المقارنة،...)، على نحو ما يؤكده محمد عزام الذي يرى أن التحليل الأسلوبي يمكن أن يطبق على نص أدبي مستقل أو نتاج مؤلف أو مقارنات أسلوبية أو تغير الأسلوب حسب الأمكنة والأزمنة والموضوعات بإجراءات منهجية مختلفة منها "منهج إمكانيات النحو، ومنهج النظم ومنهج الكلمات - المفاتيح، ومنهج تحليل الانحراف، ومنهج المستوى الوظيفي، ..."

ونشير هنا إلى أن الانحراف أو الانزياح (Ecart) قد كان أكثر الفرعيات الأسلوبية دورانا في لغة الخطاب النقدي الأسلوبي العربي، ولأن تحليل الانزياح غالبا ما يستدعي التسلح بالإجراء الإحصائى؟ من باب أن "الإحصاء هو - على وجه التدقيق - علم الانزياحات" كما يقول غيره فقد قاد ذلك بعضهم إلى الاحتفاء بالأسلوبية الإحصائية التي يتزعمها (غيرو) ذاته، مع اعترافه بأنها من قبيل "المسألة الخلافية Ouestion Controvers "المشكوك في صحتها وجدواها. ويمكن أن يكون

عبد الملك مرتاض أكثر النقاد العرب اعتدادا بهذه الأسلوبية الإحصائية القائمة على استخدام اللسانيات الرياضية في تحليل الأسلوب عند سعد مصلوح (Stylostatistique)

فقد أثبت سعد مصلوح - على سبيل التمثيل - كفاءة تطبيقية عالية وصبرا تقنيا إحصائيا) رهيبا (من الطبيعي ألا يخلو من مخاطر) في تطبيقه لمعادلة بوزيمان (Busemann's formula)على نصوص عربية (طه حسين، العقاد، شوقي، بعي محفوظ، محمد عبد الحليم عبد الله ابتغاء تشخيص أساليبها، ضمن كتابه (الأسلوب عمق هذا الصنيع – بما لا يدع مجالا للشك في جدارة الإحصاء الأسلوبي و جادواه ام ضمن كتابه اللاحق (في النص الأدبي)، الذي طبق فيه مقياس المعروف بے الخاصية) على الثابت والمنسوب من شعر شوقي، ابتغاء تحقيق نسبة النص إلى المؤلف.

وتندرج هذه المحاولة الحادة ضمن اتجاه أسلوبي عام يعرف لدى الغربيين بنقد النسبة (Critique d'attribution)، رغم أن سعد مصلوح لا يدعي ذلك ولا يومئ إليه أصلا، ويقوم "نقد النسبة على التدقيق في العمل الأدبي والتحقيق والتحقيقات المضادة،حيث يتم البحث بطريقة بوليسية في عدد من الأعمال الأدبية الأخرى التي تنتمي ان الفترة نفسها، وذلك لرؤية ما إذا كان ممكنا أم مستحيلا أن نكتشف تماما المخطط الأسلوبي نفسه، ولمعرفة أين يوجد وفي أية ظروف. هكذا يمكن تحديد الأعمال التي تنتمي إلى الكاتب نفسه والتي كانت تقدم حتى ذلك الحين على انها لمؤلفين مختلفين، أو يمكن نسبة أعمال بقيت غفلا إلى كاتب معين، وذلك عن طريق الربط بين مجموع السمات الأسلوبية المستوحاة من العمل الأدبي وبين عناصر أخرى من فئة أخرى و لحظة مأساوية، دور إحدى الشخصيات، بروز موضوع أو فكرة معينة) لتشكيل ما يدعى "المجموعة الترابطية" أو "البنية الترابطية" التي يحتمل أن تتيح النسبة.

وكذلك يفعل سعد مصلوح مع الثابت من شعر شوقي والمنسوب إليه، في تلك المحاولة الشاقة العملاقة التي لا عهد للنقد العربي بها، ومن الجناية على مثل هذا الجهد

- في تقديرنا – أن يحكم عليه صلاح فضل ب: "طابع المصادرة على المطلوب" و إذ يقوض أساسه أصلا، من باب قيامه - في نظره – على أساس مسبق من لغات أخرى أو عصور ما لا تنطبق حتما على العربية في عصرنا هذا، بل ربما كان هذا الحكم هو عين الصادرة على المطلوب)، إذ ما أكثر ما سمعنا مثل هذا الحكم على كل مسعى ينبض على الإجراء الإحصائي !...